

# كارثة نافرين

السلطان المصري وأوروبا

كان قد مضى أكثر من ثلاث سنين على شبوب الثورة اليونانية الكبرى، وكانت الدولة العثمانية قد عجزت بما فيها من جيوش واساطيل ورجال عن اطفائها، وكان الثوار، يشجعهم بعض شعوب أوروبا، قد شقوا عصا الطاعة وتطاولوا على كرامة الدولة. فمن اعتداء على الآمنين من مواطنيهم المسلمين الى فتك بعالم الدولة العزل وقطعوا طريق البحر على السفن العثمانية وغيرها واحياوا عهد القرصنة في البحر الأبيض المتوسط حتى لقد أصبح السفر فيه من اخطر الاعمال. وأغاروا على شواطئ البلاد الهادئة، وبثوا فكرة الثورة في جميع جزر هذا البحر. وما تعفوا عن جريمة ولا يتورعوا عن كبيرة من الاثم. ضاقت الدولة ذرعا واسقط في يدها، ولم تدر ماذا تصنع، وكبر عليها سقوط منزلتها في اعين هؤلاء المتمردين العاصين وتحت ايدي محرضيهم من الدول. وعظم على السلطان محموداً ان تفشل دولته ويحبس رجلاه امام شعب صغير مثل الشعب اليوناني. واخذ يفكر في من يرد اعتداءهم ويقفهم عند حدهم، فنثر كنانته وعجم اعداها عودا عودا باحثا عن اصلهم وانفذها واقواها وأشدّها ليرمي به هذا الشعب الشائر، وتلك الامة المتمردة، فلم يجد الا محمد علي باشا، مبيد المماليك وقاهر الوهابيين ومخضع كريد، عش الثورة ووكرها. نرلى وجهه شطره ووجه التفاته اليه واوفد اليه نجيب افندي قبوكتخداه (معتداه) بالاستمائه باوامر كلها عطف ورعاية، يطلب اليه في رفق ان يكفيه شرأمة اليونان وان ينقذ شرف الدولة المنيان.

وصل نجيب افندي الى مصر في منتصف شهر رجب سنة ١٢٣٩ (مارس سنة

١٨٢٣) وكان محمد علي قد بلغه الامر قبل ذلك وسره ان يعهد اليه سلطانه بهذه المهمة الخطيرة رغم دسائس حساده وخصومه في دار السلطنة ليعرف سلطانه قدر مصر ومبلغ قوتها واستعدادها، وليعلن للعالم عن عظمتها وبطولتها إكداً للحساد وتمهيدا لتحقيق ما يجرى في صدره من المطامع والآمال الكبيرة من انشاء دولة

شائعة ومحمد باذخ . فاستقبل نجيب افندي استقبالا حافلا وقرئت الاوامر العلية باعظام واجلال فاذا بها تمنح محمد على سلطة مطلقة في اتخاذ كل ما يراه مناسبا لتأديب عصاة شبه جزيرة «مورة» واخضاع جزيرتي ادرا واسبيترا علاوة على ما كان قد كان به من قبل من اخضاع جزيرة كريد ، ومحافظة جزيرة قبرص . والقيام بهذه المهمة ينعم السلطان على ابراهيم باشا بلقب والي موره ونهر عسكر ( قائد ) الاسطول المصري زيادة على لقبه الاصلى ( والى جده ) ويضع تحت امرته عشرين سفينة من سفن الاسطول العثماني ويطلق له الحرية في جلب جميع سفن النقل التابعة للحكومة العثمانية والموجودة في موانئ جنوب الاناضول وموانئ سورية وفي استنجار ما يرغب استنجاره من سفن التجار الافرنج والمسلمين .

هذه السلطة لم تعجب محمد على كثيرا لانها جاءت على خلاف ما كان يرجو ولم تحقق ما كان يتوقى اليه من الاستقلال المطلق في البر والبحر والقيادة العامة على كل بلاد اليونان وجميع جزر البحر الابيض المتوسط اذ جعلت الدولة له شريكا من ابغض خلق الله اليه الا وهو خصمه الالد ورقيبه العنود محمد خسرو باشا ( والى مصر سابقا ) اذ جعل قائدا عاما على كل اساطيل الدولة ( قبطان باشا ) وعهدت اليه باخضاع باقى الجزر اليونانية وبالاشراف على الاعمال البحرية عامة وشعر محمد على ان وجود خصمه فى القيادة البحرية العامة فيه إخلال باستقلاله وانقاص من حريته وعرقلة لمساعيه وارتباك فى الاعمال وتأخير للحركات الحربية وبعد عن النصر وضياع الفخر ، لان البحر كان اهم ميدان للثورة وان خسرو كان قد اثبت عجزه فى هذا الميدان من قبل ذلك .

استاء محمد على من ذلك وانقلب سروره الى كدر وفترت عزيمته بعد ان كان يلهمب شيرة ونشاطا . وكتب الى كثير من اصدقائه فى دار السلطنة يرجوهم ان يتوسطوا له لدى السلطان لمنحه القيادة البحرية العامة مؤقتا ريثما يقدم ثورة اليونان فلم يقبل هذا الرجاء وتغلب حزب خسرو على حزبه فكان لذلك اسوأ وقع فى نفسه ، ولكنه لم يستطع التنصل من مهمته ، واخذ يعد جيشا برى وآخر بحريا ومجهزه باحدث ما فى ذلك الوقت من مهمات واسلحة ، وما حان شهر

ذى القعدة سنة ١٣٢٩ (يوليه سنة ١٨٢٣) حتى كانت الاسكندرية تموج بالجند  
وتغص بالمؤن والذخائر . اما ميناؤها فكانت كمحشر لثلف السفن والقوارب  
وقامت على شاطئ ميناها المحمودية جبال من بقساط وسمن وعسل ودقيق وشعير  
و . . . والنقود والمصاريف ؟ فهذا صراف الجيش البرى يتسلم عشرين الف  
كيس لتوزيعها على الجند وذاك صراف جيش البحر يقبض خمسة الاف ذيرها  
وهؤلاء تجار الافرنج يأخذون اجر سقنهم وأولئك تجار المسلمين يحاسبون على ما لهم  
وهنا مدافع توضع فى السفن وهناك جبنخان يقسم على الأليات .

وفى ١٩ ذى القعدة كانت السفن قد اخذت حمولتها واحتملت ركابها . وفى  
٢٢ منه سارت باسم الله مجراها ومرساها وعدتها ٥٣ سفينة حربية مابين فرقاطه  
وجوالت وبريك وقرصان وحرقة حربية و ٥٢ سفينة ثقيلة اسلامية و ٩١ سفينة  
تجارية افرنجية عابها ثلاثون الف جندي باحماهم ، منهم ثلاثة الاف من الفرسان ،  
يقودهم البطل الاكبر والقائد الاعظم ابراهيم باشا

وكان محرم بك محافظ الاسكندرية وصهر الباشا على رأس السفن  
المصرية .



قبل ان نقتف اثر الاسطول المصرى لنعرف اين ذهب ونشاهد اعماله  
وحركاته يجب ان نأتى على وصف مختصر لرجال وسفنه ونقفى على ذلك بوصف سفن  
الثوار ورجالها لنمكن المقارنة بين قوى الطرفين البحرية والحكم على نتيجة  
الحرب . فالاسطول المصرى رغما عما بذله محمد على فى اعداده وتدريبه كان  
يقنصه كثيرا فى المعدات ليظهر فى الفنون البحرية .

من لغو القول ان نكرر ان ابراهيم باشا كان من افذاذ القواد . ولكننا لم  
نسمع شيئا عن اشتراكه فى معارك بحرية قبل الآن ، وكان هذا بلا شك من  
اهم عوامل الضعف فى الاسطول . اما العامل الثانى فانحصر فى ان رجال الاسطول  
كانوا حديثى عهد بالاسفار الطويلة قايلى الخبرة بفن الملاحة ، ولم يتمودوا على  
مغالبة الانواء والمواصف والحركة تحت الريح وفوقها والسرعة فى السكر والفروى

ادارة السفينة واستعمالها ولم يخوضوا أية معركة بحرية وكان اكثر السفن كبير الحجم  
بطيء السير قديم الطراز مثقل بالاحمال والامثعة : اذا مشت تفرقت عن بعضها  
وتشتتت أقساما كل قسم لا يدري عن أخيه شيئا . وبعد ما بينهما من المسافات  
حتى تصعب قيادتها ويتعذر جمعها ويبلغها ارادت القائد واذا هوجمت احداها  
لم تدركها الباقيات حتى يكون المدوق قد اصابها بضرر أوقضى عليها .

اما اليونانيون فهم ذئاب البحر من اقدم العصور شبوا في حجرة وترعرعوا  
على ظهره فاصبحوا منه بمنزلة الاسماك والحيتان لا نزعجهم العواصف ولا تروعهم  
الانواء . سفتهم خفيفة الوزن سريعة السير تكن في المنعطفات والزوايا وتترصد  
فريستها بين الصخور والصدوع ثم تنقض كالصواعق وتعدو كالسهام ، وفيها كثير  
من متطوعي اوروبا ، يقودها رجال من المشهود لهم بالكفاءة والمدرية اما الاسطول  
العثماني فكان اسوأ حالا وأقل كفاية من الاسطول المصري .

ولا حاجة بنا بعد هذه المقارنة لان نقول انه من الصعب جدا ان يوفق  
الاسطولان الى التغلب على سفن الثوار وانهما يحتاجان الى جهد عظيم لكف  
اذاها والتخلص من شرها فقط ، وانه كان يستحيل عليهما ان يتقدما مهاجمين .  
وهذا ما حصل فعلا :

فبعد ان سافر الاسطول المصري من الاسكندرية قضى أكثر من خمسة  
اشهر متنقلا بمفرده تارة ، ومع الاسطول التركي تارة أخرى ، بين جزر بحر ايجة  
بسواحل الاناضول وجزيرتي قبرص وكريد ، واشتبك مع الاروام في ممركتين  
نال في الاولى بعض التوفيق وانهزم في الثانية ، وفر خسرو باشا باسطوله عند  
ابتداء المعركة الثانية تاركا الاسطول المصري امام قوة اكثر منه عددا . وبعد  
هاتين الممركتين اقتنع ابراهيم باشا بتفوق اعدائه فعزم على التزام خطة الدفاع  
والاكتفاء بالوصول بجيشه البري الى موره ليضرب في البر ضرباته المشهورة ،  
وليغلبهم الاروام ان مهارتهم البحرية لا تكفي وحدها لارغام الدولة ونيل الاستقلال ،  
وان كان البحر ميدان المهارة وخفة الحركة فالبر ميدان الشجاعة والثبات .

وكتب لوالده يطلعه على جلية الامر حتى ينظر في امر تنظيم الاسطول من

جديد ، وكان محمد على لا يبجل هذا الامر بل إنه أوصى منذ زمن ببناء سفن في معامل فرنسا وإيطاليا وبعث رساله لطلب ضباط وبحارة من أوروبا للإشراف على تكوين اسطول لا يكفي فقط لقهر اليونان بل يتحدى به عند اللزوم اية دولة أوروبية

وفي شهر رجب وحل جيش البر الى مورة (١ أكتوبر سنة ١٨٢٤) وانزل عساكره في ميناء مودون وقد كان الجيش البري موقفاً فائزاً نجاحاً باهراً خلال بضعة أشهر . ففي شعبان تمكن من الاستيلاء على قلعة نفارين الحصينة وفي ذى القعدة دخل مدينة تريبوليسا ولم تمض عليه السنة حتى كان قد اخضع جميع بلاد موره الداخلية . ولم يثبت في وجهه الامنية ميسولوجي التي قاومت مقاومة تدعو الى الاعجاب ، ولكنها أخذت عنوة في رمضان سنة ١٢٤١ (ابريل سنة ١٨٢٥) وكان سقوطها ضربة قاضية على جمعيات محبي اليونان في أوروبا وقسم لظهر الثورة ولم يبق في مورة من تحدته نفسه بالمقاومة وركن من كان فيها من زعماء الثورة الى الفرار ناجين بارواحهم ، وانقسموا الى طائفتين طائفة تريد التسليم واخرى تريد دوام النضال . وكان هذا النصر كافياً لانتهاء الثورة لو أن البحر تطهر من الثوار . ولكنهم كانوا مسيطرين عليه بل ازدادوا جرأة وقاحة . فعول محمد على على امداد ابراهيم بحملة ثانية بعد أن يدخل تعديلاً هاماً على الأسطول ويضم اليه عنصر جديد من رجال الفن من أحسن السفن الحديثة ولكنه صمم على أن لا يرسل هذه الحملة حتى يعزل خسرو من قيادة الأسطول وحتى تكون له قيادة السفن التركية التي تضم الى الأسطول المصري . فقبل الباب العالي طلبه في أواسط سنة ١٢٤٢ هـ سنة ١٨٢٦ م وعزل خسرو وتعين بدله عزت باشا على أن لا يخرج إلى البحر الابيض « لكي لا يكون مرؤوساً لوزير مثله » وعين طاهر باشا ليكون في معية ابراهيم باشا . ولكن دول أوروبا المحرضه لليونان وخصوصاً إنجلترا كان قد أزعجها سقوط ميسولوجي وأدركت ان ضربة أخرى في البحر تقضي على اليونان قضاء مبرماً وتجعل الباب العالي تحت نفوذ محمد على المطلق ، وحسبت حساباً كبيراً لما يكون بعد أن يقضي محمد على على اليونان ولديه أسطول ضخم مدرب يشرف على تنظيمه رجال من أعظم

رجال البحرية الفرنسية . فكرت انكأترافى كل هذا وتصورت شبح الاسطول  
المصرى ينافسها فى البحر الابيض والتجارة أيضا ؟ وقد كاد محمد على يحتكر التجارة  
الشرقية وهو بلا أسطول فكيف به إذا صار صاحب اسطول له السيادة على البحر  
الابيض ؟ اليس فرنسا تشجعه ؟ من يدرى فرما اتفقا ضدها وانتقمت فرنسا .  
كل هذه الافكار كانت تشغل بال الوزارة الانجليزية حينما دعت فرنسا وروسيا  
للتداخل لمصلحة اليونان فى ( يونيه سنة ١٨٢٥ )

كان سرور محمد على بانتصاره على خصمه العنيد خسرو أعظم بكثير من انتصاره  
جيشه فى مورة . لان خسرو كان من ألد خصومه التقدماء الدائبين على السكيد له  
والايقاع به عند سلطانه ولا يترك فرصة تمر دون ان يلقى فى روع السلطان أن محمد  
على خير مخلص للدولة وانه متى قوى جيشه وأسطوله قلب لها ظهر المجن وانفرد  
بالبلاد التى تحتلها جنوده ( مصر والسودان والحجاز والعسير وكريد وقبرص ومورة )  
وكانت أقوالهم تلقى اصفاء تارة واعراضاً تارة أخرى .

والحقيقة أن مخاوف الدولة من اتساع نفوذ محمد على اتساعا لم يبلغه وال آخر  
لم تكن مبنية على الوهم والخيال بل كان من اعماله ما يبررها . ولكن ماذا تعمل  
الدولة اذ الم بها خطب جسيم ولم تجد من ينقذها منه خير محمد على ؟ قبلت مكرهه  
عزل خسرو وجعل اسطولها فى البحر الابيض بامرة محمد على ونشط هو لتجهيز  
الحملة الثانية وأرسل يدعو سفنه الجديدة من أوروبا ورجع الاسطول الى  
الاسكندرية لاستكمال نواقصه واصلاح ما أصابه من عطب

لم يحفل محمد على بادىء بدء بقرار الدول وظن أن الامر لا يتعدى التهديد  
والتخويف وان فرنسا صديقه الحميمة لا تباع صداقته حبا فى الاروام ولا تتعدى  
عليه بنير حق فلم يترغ فجر سنة ١٢٤٢ ( سنة ١٨٢٧ م ) حتى كان قد أتم إعداد  
أسطول يفوق الأول عدة وعددا وفيه كثير من الضباط والبحارة الفرنسيين ذوى  
الكفاية والمقدرة ومن بين سفنه أربع بوارج من أضخم البوارج وأحسنها وأرسله  
الى مورة مزودا بأكثر من خمسة عشر ألف جندي من المشاة .

وصلت هذه الحملة الثانية الى مورة فقامت انكلترا وقعدت وأيقنت ان اليونان

قد قضى عليهم وأن الباب العالي قد تخلص من أكبر مشاكلة وإن محمد علي أصبح نابليوناً ثانياً ، فدعت حليفتيها (روسيا وفرنسا) للقيام بعمل مشترك لا يقف أعمال إبراهيم باشا بالقوة مادامت المساعي السياسية التي قامت بها لدى الباب العالي قد فشلت ولم يقبل منها التداخل بينه وبين رعاياه فإذا ذلك أمراً من أموره الداخلية البحتة . ولقد أيقن محمد علي أن موقف الدول المتحالفة أخذ يتطور وأن مذكراتها ومخابراتها تدل على أنها لا تهزل هذه المرة وإنها لا محالة ستقرن تهديدها بالعمل ، فخاف سوء العاقبة وكتب إلى الباب العالي يلتمس منه أن يتساهل في أمر اليونان ويمنحها استقلالاً داخلياً ولو مؤقتاً ارضاء للدول المتحفزة وكفا لشرها ، لأن الباب العالي لا قبل له بحربها ولا قدرة له على دفع اعتدائها وحذره عاقبة العناد والتصلب . فلم يكثرث الباب العالي بما يقول وأمر على وقفه السلمي نحو الدول وأرسل لمحمد علي يطلب إليه الثبات وأن يأمر إبراهيم بالمضي في أعماله الحربية . فلم يعجب محمد علي هذا العناد الذي لا يبرده ضعف الدولة فكتب ثانياً وثالثاً يكرر ما قاله والباب العالي لا يتزحزح عن موقفه . وكان أسطول المتحالين قد وصل إلى نغارين وأرسل انذاراً إلى إبراهيم باشا بتوقيف أعماله وبعدم الحركة إلى أي مكان فحال ذلك إبراهيم وغاظه هذا التعسف والاستبداد واجاب على انذارهم بقوله إنه موفد من قبل والده والسلطان وأنه مكلف بتنفيذ أوامرها ولا يعترف لغيرها بسلطان عليه . ومادام لم يتلق أمراً من والده بالكف عن الحرب فلا يكف عنها ومع ذلك فهو يمنح الثوار هدية إلى أن يأتي إليه الجواب على شرط أن لا يقوم اليونانيون من جانبهم بأي عمل عدائي وإن يكون له الحق بتمرين عساكره المحافظين في قلاع السواحل . فرضى قواد الاساطيل المتحدة بجوابه وانتهى الأمر على ذلك .

وجد محمد علي أن عناد الباب العالي سيجره إلى حرب لا قبل له بها ، وربما أصيب الجيش المصري والاسطول بنكبة فكتب إلى إبراهيم بأمره بالتلطف مع الدول وتوقيف الهجوم على جزيرتي ايدرا واسيبيزا ، الذي كان قد عزم على القيام به بعد وصول الحملة الثانية إليه ، وكان إبراهيم باشا يرى عدم الاذعان

الغلبات الدول لان فيها جرحا للعرض والكرامة ولكنه اضطر الى الخضوع لامر والده فوافق على الهدنة كما ذكر . وفي اثناء ذلك بلغ ابراهيم ان عمارة يونانية اتت لمهاجمة احدى الموانى ، وكان هذا العمل مخالفا لشروط الهدنة فرأى نفسه في حل من اقتصاص اثر هذه العمارة والتسكيل بها ولكنه للتخلص من كل لوم اعلن انه يريد تمرين احدى القلاع واعد لذلك حملة ارسلها تحت قيادة احد زعماء الجيش فعد الأميرال الانجليزى هذه الحركة خروجا على الهدنة واقتفى اثر الحملة وكان ابراهيم باشا قد تبعها بنفسه بعمارة أخرى فاعترض الانجليز سيره ووقفوه عن التقدم وكاد القتال ينشب بين الفريقين لولا أن قامت عاصفة حلت دون ذلك ، واجبرت ابراهيم باشا على الرجوع الى ميناء نقارين . وفي اليوم التالى لهذه الحادثة — ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ — بينما كان الأسطولان المصرى والتركي مرابطين فى الميناء لا يتوقعان شرا ولا يحسبان حسابا لمفاجأة وكان ابراهيم باشا قد ذهب الى داخل مورة ، اذا باساطيل الدول الثلاث تدخل الميناء متحفزة للقتال ، فلم يرتب أحد في نيتها ولم تطلق عليها حصون المدخل طلقة واقربت الى أن اشتبكت صواريخها بصواريخ الأسطولين وأخذ الأميرال كودرنجتون يمين لكل منها موقفه ويتخير لها الامكنة التى تجعلها قادرة على تسديد المرمى واصابة الهدف وبعد أن تم له ذلك أرسل الأميرال الفرنسى رينى خطابا الى الضباط الفرنسيين الذين فى خدمة الاسطول المصرى يقول فيه ان فرنسا تعد من يبقى في مكانه خائنا وانه يجب عليهم الانسحاب فى الحال وترك الاسطول المصرى . فلم يرض غير قليل حتى انسحبوا جميعا وتركوا الخدمة فى وقت يطلب فيه اذاؤها ولم يتخلف منهم الا اثنان ظنا من الشرف ان يؤديا عملا اخذا عليه اجرا ولكنهما مع الاسف ، لم يسيرا الى النهاية ولفتح باب الشر ارسل الأميرال الانجليزى الى احدى الحركات التركية قاربا يأمرها بالابتعاد فلم تمتثل لانها لم تجد لذلك معنى فاطلقت عليها بارجة الأميرال وابلا من رصاص البنادق فقاتلها بالمثل وقتل ضابط انجليزى ووجدت وسيلة للانتقام من محمد على وتنفيذ المشروع المقرر تنفيذه ولو لم توجد هذه الوسيلة . وأخذت البواريج المتحدة تطلق النار فيماوشة لا فارتبك الاسطولان

وحاربا في أمرها وجاوبت بعض السفن التركية ، وحاول محرم بك إيقاف القتال ودخل في مخابرات مع الأدميرال الانجليزى فكان يراوغ وبماطل اكتسابا للوقت وتأخيرا للسفن المصرية عن الاشتراك في القتال فلما أصبح حاكما على الموقف قطع المخابرة ورفض التفاهم

استمرت نار القتال واشتد هبوبها ثلاث ساعات متواليات ودافع المباغتون دفاع الأبطال ولكن ماذا يجدى دفعهم وقد اخذوا على غرة وداهمتهم قوات تفوقهم عددا وسلاحا . وقعت الكارثة وغرق كثير من سفن الأسطولين وانسحبت أساطيل الاعتداء تجرأ ذيل الفخر والمباهاة بما أتت من بطولة تخلد لها في بياض التاريخ ، ولكن في صف القدر والقرصنة !

وكأن القدر لم يقنع بما رمى به المصريين والترك فسلط ابليس على قواد الأتراك فوسوس لهم أن المصلحة في أن يغرقوا ما بقى من سفنهم فاحرقوها بأيديهم وغرقت المؤونة فاصبح الجليش محصورا في هذه البلاد .

هذه هي الكارثة العظمى أروىها كما رواها ثقة المؤرخين لا كما لفتت بأيدي المغرضين ليطلع غايبها كل مصرى ، وينقشها على صفحات قلبه ، ولا ينسى اعتداء قضى على حرية بلاده .

مؤرخ